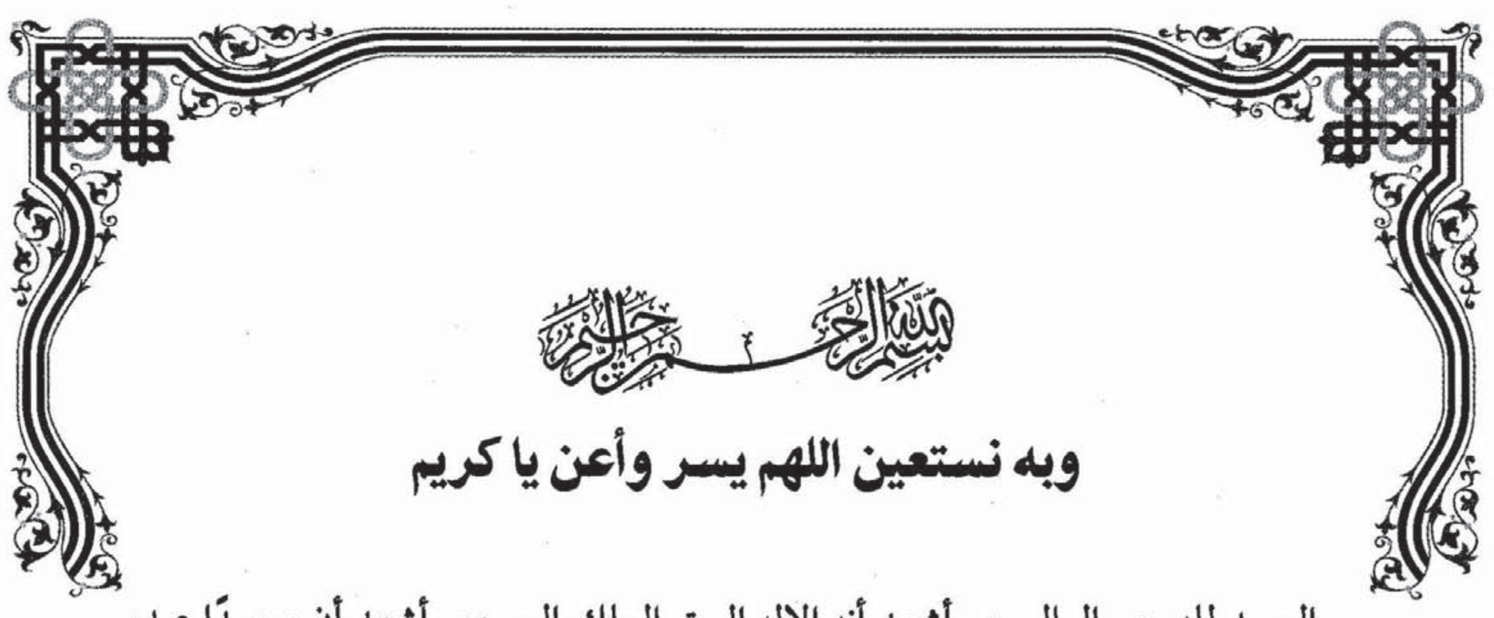
الحق الواضح المبين

في شرح

توحيد الأنبياء والمرسلين

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



وبه نستعين اللهم يسر وأعن يا كريم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أنه الإله الحق الملك المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كنت وضعت شرحًا على توحيد الأنبياء والمرسلين من (الكافية الشافية) للمحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرت فيه من النقول عن كتب المؤلف فبدا لي أن ألخصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده، وأرجو الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، نافعًا لكاتبه وقارئه، إنه جواد كريم.

قال المصنف رحمه الله:

فصل

في توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته وأدلته وبراهينه وآثاره الجميلة وثمراته الجزيلة، وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية والآفاقية والنفسية على صحته وكماله ووجوبه، وتعينه طريقًا للنجاة من شرور الدنيا والآخرة، ووسيلة إلى السعادة والفلاح، وهو الذي لا يحصل للقلوب زكاة ولا سرور ولا طمأنينة ولا إيمان صحيح ويقين إلا به، وهو الأصل والأساس لجميع الأعمال، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق وأكملهم عقولًا وأزكاهم نفوسًا وأجمعهم للمحاسن، وهم جميع الأنبياء والمرسلين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى وأصحابهم وأتباعهم.

ونبذه وزهد فيه كل ملحد ومعطل، ممن فسدت أديانهم ومرجت عقولهم واكتسبوا شر الأخلاق، وممن خالفوا الأنبياء في طريقهم وتوحيدهم في الدليل والمدلول. فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق المزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل مؤيد بالشبه التي هي على جهل أصحابها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذًا توحيد رسل الله ثُمّ ... اجعله داخل كفة الميزان

مع هذه الأنواع وانظر أيها ... أولى لدى الميزان بالرجحان

وذلك أن الشيء يعرف بضده، والحق يتضح ويظهر نوره بمعرفته ومعرفة ما يضاده من الباطل، فإنك إذا وزنت - بميزان العقل الحقيقي والفطر السليمة التي لم تتغير والبراهين الدالة على الحقائق - توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد المعطلين؛ وجدت بينهما من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل. وكيف يوزن توحيد المعطلين الملحدين المشتمل على مسبّة رب العالمين، ووصفه بكل صفة ناقصة ونفي حقائق أوصافه الكاملة والافتراء عليه وعلى كتبه، ورسله وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساويًا للخالق الكامل في أسمائه وصفاته من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المحتوي على تعظيم رب العالمين وتقديسه وتمجيده، والثناء عليه بأكمل الثناء ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل وعن مشاركة المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة وكماله العظيم، وكيف يوزن توحيد يرقى أصحابه إلى أعلى عليين، بتوحيد النفاة الذي ينزل بأهله إلى أسفل سافلين، أم كيف يوزن توحيد يجعل من اتصف به هاديًا مهديًّا وطاهرًا مرضيًّا، بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال وأرذل الخصال، ويفضي بهم إلى الشقاء الأبدي.

توحيدهم نوعان قولي وفعـ ـليٌّ كلا نوعيه ذو برهان

يعني أن توحيد الأنبياء ينقسم قسمين:

أحدهما: التوحيد الفعلي وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقربات، ويأتي آخر الفصول، هو المسمى (توحيد العبادة وتوحيد الإلهية)، وسمي توحيدًا فعليًّا؛ لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وأنه لا يتخذ له شريك ولا نديد.

والثاني: التوحيد القولي الاعتقادي، وهو المشتمل على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان والثناء على الله بتوحيده. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه (توحيد الربوبية). وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف بالتوحيد القولي فقال:

فالأول القولي ذو نوعين أيـ ـضًا في كتاب الله موجودان

إحداهما سلب وذا نوعان أيـ ـضًا فيه حقًّا فيه مذكوران

سلب النقائص والعيوب جميعها عنه هما نوعان معقولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله وكذلك في السنة: **أحدهما:** سلب أي نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، **والثاني:** إثبات صفات الكمال لله تعالى كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود الأعظم من التوحيد إثبات صفات المدح والحمد، و نفي كل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص، فإنه متضمن للمدح وللثناء على الله بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين ذكرهما المصنف بقوله:

سلب لمتصل ومنفصل هما نوعان معروفان أما الثاني

سلب الشريك مع الظهير مع الشفيـ ـع بدون إذن الخالق الديان

وكذاك سلب الزوج والولد الذي نسبوا إليه عابدو الصلبان

وكذاك نفي الكفو أيضًا والوليـ ـيِ لنا سوى الرحمن ذي الغفران

يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص نوعان:

سلب لمتصل: وضابطه نفي ما يناقض ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة.

وسلب لمنفصل: وضابطه تنزيه رب العالمين عن أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال، وأن يفرد بالعبودية، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته وإلاهيته، فإنه متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له في ذلك شريك وليس له أيضًا ظهير؛ أي معين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها؛ لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوتهم إلا بالله، فالشريك والظهير

منفيان عنه مطلقًا، وأما الشفيع فإنه من عظمته وكمال ملكه ينزه عن أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

وأما الشفاعة عنده بإذنه من الأنبياء والأصفياء لأهل الجرائم؛ فإنها ثابتة كما أثبتها في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنها دالة على كمال رحمته وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة فيه. ومع هذا فلا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن رضي قوله وعمله، وهو من كان مخلصًا لله متابعًا لرسول الله، قال تعالى نافيًا مشاركة أحد له في الأمور الثلاثة الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة بغير إذنه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فقطع بهذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وبين أن من كان بهذا الوصف - لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك، ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله - لا يستحق من العبادة مثقال ذرة.

وكذلك ينزه الله عن اتخاذ الزوجة والولد الذي نسبه إليه عباد الصلبان؛ حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، وكذلك عباد الأوثان إذ قالوا: الملائكة بنات الله، فكذب الله كل من زعم أن له زوجة أو ولدًا فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]. وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. إلى غير ذلك من الآيات النافية عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولدًا أو شريكًا؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء، وكل الخلق مملوكون له فقراء إليه، فمن كان كذلك فكيف يتخذ الصاحبة والولد تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ

وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣].

وقول المصنف:

.... نسبوا إليه عابدو الصلبان

هذا على لغة من يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر مطلقًا، فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان.

قوله: «وكذاك نفي الكفو أيضًا» أي يجب ويتعين أن ينفى أن يكون أحد مكافئًا لله في كماله وحقوقه، قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

فليس أحد مكافئًا لله أي مساويًا له في الأسماء والصفات ولا في الأفعال؛ لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمله ربه بكمال المخلوق اللائق به، فليس لأحد صفات تقارب صفات الله ولا أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلًا حتى يعينه الله على أفعاله؛ ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئة الله مع وقوعها بإرادتهم وقدرتهم، فخالق القدرة والإرادة خالق ما يكون بهما، قال تعالى في بيان الأصلين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

ومما ينفى عن الله وينزه عنه أنه ليس لنا وليّ سواه يجلب لنا المنافع ويدفع عنا المضار، فليس لنا وليٌّ سواه، فإنه تولى خلقنا ورزقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة. فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير الشاملة للبر والفاجر قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ ﴾ [السجدة: ٤]. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [الشورى: ٤٤]. والولاية الخاصة ولايته للمؤمنين المتقين يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿أَلَآ

﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكذلك لم يتخذ من خلقه وليًّا من الذل لكمال اقتداره وغناه وعظمته، وإنما يتخذ منهم أولياء رحمة بهم وإحسانًا إليهم يحبهم ويحبونه. والحاصل أنه ليس أحد مساويًا لله تعالى أو مماثلًا أو معينًا أو وزيرًا، أو محتاجًا إليه بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن ... وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ... ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسنة التي هي أصله ... وعزوب شيء عنه في الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله: وهو التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص مناقضٍ لكمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة كمال منزه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال الحياة وبكمال القدرة، منزه عما يضادها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفًا بشيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. ومنزه أيضًا عما يضاد الحياة والقيومية من النوم والنعاس وهو السنة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»[(١)]. وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يسر العباد وما يعلنون، منزه عما ينافي ذلك، فلا يعزب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السماوات والأرض قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]. وقال تعالى ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

(١) تقدم تخريجه ص٣٥٠.

أَكْبَرُ ﴾ [سبأ: ٣].

وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ـمته وحمد الله ذي الإتقان
وكذاك ترك الخلق إهمالًا سدى لا يبعثون إلى معادٍ ثاني
كـلا ولا أمـر ولا نـهي عليـ ـهم مـن إلـه قـادر ديَّـان

أي: وكذلك يجب تنزيه الله عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق شيئًا عبثًا ولا باطلًا، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة عظيمة؛ لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المصنوعات وإحكامها وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمه، وهذا مشاهد في خلقه وشرعه، ومن تمام حكمته أنه لم يخلق خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية ويبتليهم بالأوامر والنواهي. ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيها عليهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]. فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه هملًا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

وكذاك ظلم عباده وهو الغنيّ فـمـا لـه والـظـلـم للإنـسـان

أي وكذلك ينزه الباري عن الظلم للعباد بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه أو من هو موصوف بالجور، وأما الله الغني عن خلقه من جميع الوجوه، الحكم العدل الحميد، فما له وظلم العباد، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]. وقال على لسان نبيه: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» رواه مسلم(١).

وكذاك غفلته تعالى وهو علّـ ـام الغيوب فظاهر البطلان
وكذلك النسيان جل إلهنا لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعم ورز قٍ وهو رزاق بلا حسبان

أي كذلك ينزه عن الغفلة والنسيان بوجه من الوجوه؛ لأنه عالم الغيب والشهادة وعلمه محيط لا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]. وكذلك ينزه عن احتياجه إلى الطعام والرزق فإنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق الغني عنهم وكلهم فقراء إليه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤].

هذا وثاني نوعي السلب الذي هو أول الأنواع في الأوزان
تنزيه أوصاف الكمال له عن الـ ـتشبيه والتمثيل والنكران
لسنا نشبه وصفه بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان
من مثل الله العظيم بخلقه فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه، الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلبي في الميزان؛ أي: في هذه القصيدة، وتقدم النوع الأول من قسمي السلب؛ وهو

(١) تقدم تخريجه ص٣٥٠.

السلب المتصل والمنفصل المتضمن تنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به وعما يناقض كماله، وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله ونعوت جلاله عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال: علم الله أو قدرة الله كعلم الخلق أو قدرتهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، فإن ذلك تشبيه لله بالخلق، ومن قال بهذا فإنه يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده كما فعل النصارى بالمسيح ابن مريم جعلوه إلههم ومعبودهم.

فالمشبه نسيب أي مشابه للنصراني، وأما رب العالمين فهو فوق ما يظنون وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين فصفاته لا تشبهها صفاتهم، وينزه عن تعطيل صفاته ونفيها كما فعلته الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسنة الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطل أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبدًا للعدم المحض والنفي الصرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به؛ ولهذا قال المصنف:

.... **فهو الكفور وليس ذا إيمان**

وسيأتي إن شاء الله كلام المصنف في الكلام على الجهمية وغيرهم من أهل البدع.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبِّه، ومعطل؛ **فالمؤمن الموحد**: يصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله.

والمشبِّه: هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله.

والمعطل: هو من نفى شيئًا من صفات الله.

وكل من المعطل والمشبه قد حرم الوصول إلى معرفة الله على وجهها، وابتلي بالتكلف

والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه العقول والفطر التي لم يطرأ عليها التغير، فلا معقول لديهم ولا منقول. وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطرائف في المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأل الله الهداية لأقوم الطرق.

فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف النوعين وأجلهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنف في هذا البيت:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو   صاف الكمال لربنا الرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يعترفوا ويثبتوا لله كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلهية، وثبتت في النصوص النبوية، يتعرفون معناها ويعقلونه بقلوبهم، ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها، ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من الأحوال القلبية والمعارف الربانية، فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبة لله وتعظيمًا له وتقديسًا، وأوصاف العزّ والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربها، وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعًا فيه وفي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه، وأوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته، ومجموع الصفات المتنوعة الدالة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقًا إليه، وتوجب له التأله والتعبد والتقرب من العبد إلى ربه بأقواله وأفعاله، بظاهره وباطنه، بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه.

وبهذه المعاني الجليلة وتحقيقها يرجى للعبد أن يدخل في قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» متفق عليه[1]. فإحصاؤها فهمها وعقلها والاعتراف بها والتعبد لله بها. ثم شرع يفصلها فقال:

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٥٩.

كعلوه سبحانه فوق السما ... وات العلى بل فوق كل مكان
فهو العلي بذاته سبحانه ... إذ يستحيل خلاف ذا ببيان
وهو الذي حقًّا على العرش استوى ... قد قام بالتدبير للأكوان

أما علو الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها فقد دل عليهما العقل والفطرة مع النصوص الكثيرة المتواترة، فإنه علا بذاته فوق مخلوقاته، ويستحيل ألا يكون عليًّا؛ فإنه يمتنع أن يكون حالًّا في المخلوقات، فيتعين أن يكون فوقها مباينًا لها، وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل؛ الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وأخبر أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده في مواضع كثيرة.

وقد سئل الإمام مالك رحمه الله عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب». وهكذا يجاب عن جميع ما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله، فكما أنه ثبت لله صفاته العظيمة على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء على العرش من جملة أوصافه، فاستوى على العرش واحتوى على الملك؛ يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، كما جمع بين الأمرين في قوله ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس: ٣].

حي مريد قادر متكلم ... ذو رحمة وإرادة وحنان

أي: هو تعالى حي حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، ومن كمال حياته أنه كامل القدرة نافذ الإرادة والمشيئة.

وجمع المؤلف بين القدرة والإرادة وهي المشيئة لأن جميع صفات الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء على العرش، ونزوله إلى سماء الدنيا على ما وردت به النصوص، والمجيء والإتيان والقول ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه كالإحياء والإماتة والخلق وأنواع التدبيرات كلها تصدر عن القدرة والإرادة، فما وُجد علم أن الله أراده، وما لم يوجد علم أن الله لم

يرده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة لأحد إلا به لشمول إرادته وكمال قدرته.

وقوله « متكلم » أي لم يزل ولا يزال بالكلام موصوفًا، فيكلم بما أراد كيف أراد وحيث أراد ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. وسيأتي إن شاء الله القول في الكلام، «ذو رحمة وحنان». أي: قد اتصف بالرحمة وعمَّ خلقه بالنعم وشملهم بالكرم والبر والحنان والجود والامتنان.

هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه	شيء وذا تفسير ذي البرهان
فانظر إلى تفسيره بتدبر	وتبصر وتعقل لمعاني
وانظر إلى ما فيه من أنواع معـ	ـرفة لخالقنا العظيم الشان

أي: هذا التفسير لهذه الأسماء الأربعة المباركة قد فسرها به النبي ﷺ بقوله: **«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»**[1] إلى آخر الحديث، ففسر كل اسم بمعناه العظيم، ونفى عنه ما يضاده وينافيه، فتدبر هذه المعاني الجليلة الدالة على تفرد الرب العظيم بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في قوله: (الأول والآخر) والمكانية في (الظاهر والباطن).

فالأول: يدل على أن كل ما سواه حادث بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية؛ إذ السبب والمسبب منه تعالى.

والآخر: يدل على أنه هو الغاية والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألهها ورغبتها ورهبتها وجميع مطالبها.

---

(١) تقدم تخريجه ص٣٥٥.

والظاهر: يدل على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، وعلى علوه.

والباطن: يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قربه ودنوه. ولا يتنافى الظاهر والباطن؛ لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت.

وهو العلي فكل أنواع العلوّ ... له فثابتة بلا نكران

في القرآن من أسمائه الحسنى (العلي الأعلى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات فإنه فوق المخلوقات، وعلى العرش استوى؛ أي: علا وارتفع. وله علو القدر: هو علو صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته.

وله علو القهر، فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ ... ـعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه؛ كما ينبغي له ولا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان: **أحدهما**: أنه موصوف بكل صفة كمال وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة،

ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]. وقال تعالى وهو العلي العظيم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥] الآية. وفي الصحيح عنه ﷺ أن الله يقول: **«الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته»**[1]؛ فلله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والانكسار له والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه أن يتقى حق تقاته، فيطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. ومن تعظيمه تعظيم ما حرمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. و﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]. ومن تعظيمه ألا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا	ل لـه محققة بـلا بـطـلان
وهو الجميل على الحقيقة كيف لا	وجـمـال سـائـر هـذه الأكـوان
من بعض آثار الجميل فربها	أولى وأجدر عند ذي العرفان
فجماله بالذات والأوصاف والـ	أفـعـال والأسـمـاء بالبرهان
لا شيء يشبه ذاتـه وصفاتـه	سبحانه عن إفك ذي بهتان

(١) تقدم تخريجه ص٣٩٢.

يعني أن الله تعالى هو (الجليل) الذي له أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء ثابتة محققة لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو (الجميل) بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن مخلوقًا أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى إن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللذات والسرور والأفراح التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا أن لو تدوم هذه الحال، واكتسبوا من جماله ونوره جمالًا إلى جمالهم، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وكذلك هو الجميل في أسمائه فإنها كلها حسنى بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال، لا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره.

وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد؛ فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والكرم والجود. وكذلك أفعاله كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويثنى عليه ويشكر، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا سدى ولا ظلم، كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه من أحسن الأحكام، وصنعه وخلقه أحسن خلق وصنع: أتقن ما صنعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وأحسن ما خلقه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم استدل المصنف بدليل عقلي على جمال الباري، وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال، وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاها الحسن، فهو أولى

منها لأن معطي الجمال أحق بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، خصوصًا ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط في رجالهم ونسائهم، فلو بدا كَفٌّ واحدة من الحور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومَنّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحق منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء؟!

فهذا دليل عقلي واضح مسلم المقدمات على هذه المسألة العظيمة وعلى غيرها من صفاته قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. فكل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا؛ فإن معطيه وهو الله أحق به من المعطى بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]. وقال «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2] فسبحان الله وتقدس عما يقوله الظالمون النافون لكماله علوًّا كبيرًا، وحسبهم مقتًا وخسارًا أنهم حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل؛ لأن تمام التعبد لله هو التعبد بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته والتأله له وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد بحيث يسيح القلب في رياض معرفته وميادين جماله، ويبتهج بما يحصل له من آثار جماله وكماله فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيد صفاته أوصاف تعـ ـظيم فشأن الوصف أعظم شان

(١) تقدم تخريجه ص٣٦٤.

(٢) تقدم تخريجه ص٣٦٤.

(المجيد) الذي له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان

ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان

والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والدان

وهو البصير يرى دبيب النملة الـ ... ـسوداء تحت الصخر والصوان

ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى نياط عروقها بعيان

ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين (السميع، البصير) وكثيرًا ما يقرن الله بينهما مثل قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية عنده سواء ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. قالت عائشة رضي الله عنها: «تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآية. وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقول المصلي: (سمع الله لمن حمده) أي استجاب.

ثم قال المصنف «وهو البصير» أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك، فسبحان من تحيرت العقول في عظمة وسعة متعلقات صفاته وكمال عظمته ولطفه وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب ويرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان وحركات الجنان، قال تعالى ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠]. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. أي: مطلع ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات.

وهو العليم أحاط علمًا بالذي	في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه	فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما	قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ	ـف يكون ذا إمكان

هذا تفسير لاسمه (العليم) بأحسن تفسير وأجمعه، فهو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت. كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن، والجلي والخفي. قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]. والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدًّا لا يمكن حصرها وإحصاؤها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت كما أن قدرهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين. وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي وما فيه من المخلوقات ذواتها وأوصافها وأفعالها وجميع أمورها فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعدما يميتهم وبعدما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها، وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار.

فصل

وهو الحميد فكل حمد واقع ... أو كان مفروضًا مدى الأزمان
مـلأ الـوجـود جميعه ونظيره ... مـن غير مـا عـد ولا حسبان
هـو أهـلـه سبحانه وبحمده ... كل المحامد وصف ذي الإحسان

هذا تفسير لاسمه (الحميد) فذكر أنه حميد من وجهين:

أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض الأولين منهم والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضًا ومقدرًا حيثما تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات، حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد ولا إحصاء، فإن الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة؛ منها: أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

الوجه الثاني: أنه يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله؛ لأنها دائرة بين أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال

الحمد، وله الحمد على خلقه وعلى شرعه وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكام الجزاء في الأولى والآخرة، وتفاصيل حمده وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام.

فصل

وهو المكلم عبده موسى بتكـ	ـليم الخطاب وقبله الأبوان
كلماته جلت عن الإحصاء والـ	ـتعداد بل عن حصر ذي الحسبان
لو أن أشجار البلاد جميعها الـ	أقلام تكتبها بكل بنان
والبحر تلقى فيه سبعة أبحر	لكتابة الكلمات كل زمان
نفدت ولم تنفد بها كلماته	ليس الكلام من الإله بفان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام معروفًا موصوفًا، وكلامه تعالى من صفاته الذاتية الفعلية غير مخلوق كسائر صفات أفعاله، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وذكر كلامه للأبوين في عدة مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: ٢٧]. ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩]. فالكلام متعلقاته عامة عظيمة، يتكلم تعالى بما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله وبما يتعلق بجميع مخلوقاته، بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، وكلماته كلها عدل وصدق: صدق في الأخبار ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢]. وعدل في الأوامر والنواهي، والقرآن العظيم من أجلِّ كلامه وأشرفه وأعلاه، وكذلك الكتب التي أنزلها على رسله.

ويكلم عباده وتكليمه إياهم نوعان: نوع بلا واسطة كما كلم موسى بن عمران ﷺ والأبوين، وكما خاطب محمدًا ﷺ ليلة أسري به إليه، وكما يخاطب أهل الموقف وأهل

الجنة في الجنة حين يرونه ويكلمهم ويكلمونه.

والنوع الثاني: تكليمه لعباده بواسطة؛ إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما يشاء. وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

واعلم أن صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلقها وقيامها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلقها بقدرته ومشيئته، فإذا كان من المعلوم أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء؛ لأن الكلام من أعظم صفات الكمال التي يستحيل نفيها عن الله تعالى، وكلماته غير متناهية فلا تفنى ولا تبيد، ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق في جملة المخلوقات التي تنتهي، وتصور هذا القول كاف في ردّه.

وهو القدير فليس يعجزه إذا	ما رام شيئًا قط ذو سلطان
وهو القوي له القوى جمعًا تعا	لى الله ذو الأكوان والسلطان
وهو العزيز فلن يرام جنابه	أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذ ثلاث معاني
وهي التي كملت له سبحانه	من كل وجه عادم النقصان

هذه الأسماء الثلاثة العظيمة (القدير، القوي، العزيز) معانيها متقاربة، فهو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]. فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم: عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت، وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه، بل هو الضار النافع المعطي المانع،

وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به، فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادهم غير تتبيب، وخصوصًا في هذه الأوقات، فإن هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم وقدرهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئًا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي.

ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضًا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا وتضاف إليهم فعلًا ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أولياءه على قلة عَددهم وعُددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعُدة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع

العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى.

وهـو الغني بـذاتـه فغناه ذا   تـيٌّ لـه كـالـجـود والإحـسـان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].
فهو تعالى (الغني) الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًّا فإن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا محسنًا جوادًا برًّا رحيمًا كريمًا، والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها وفي بقائها وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه، ومن سعة غناه أن خزائن السماوات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده سحاء الليل والنهار، وخيره على الخلق مدرار.

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه ويعدهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلًّا منهم ما سأله وما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه مثقال ذرة.

ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة، ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك ولا وليًّا من الذل، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه   نوعان أيضًا ما هما عدمان

حكم وأحكام فكل منهما   نوعان أيضًا ثابتا البرهان

والحكم شرعي وكوني ولا   يتلازمان وما هما سيان

بل ذاك يوجد دون هذا مفردًا   والعكس أيضًا ثم يجتمعان

لن يخلو المربوب من إحداهما ... أو منهما بل ليس ينتفيان

لكنما الشرعي محبوب له ... أبدًا ولن يخلو من الأكوان

هو أمره الديني جاءت رسله ... بقيامه في سائر الأزمان

لكنما الكوني فهو قضاؤه ... في خلقه بالعدل والإحسان

هو كله حق وعدل ذو رضا ... والشأن في المقضي كل الشان

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ... ـمقضي حين يكون بالعصيان

فالله يرضى بالقضاء ويسخط الـ ... ـمقضي ما الأمران متحدان

فقضاؤه صفة به قامت وما الـ ... ـمقضي إلا صنعة الإنسان

والكون محبوب ومبغوض له ... وكلاهما بمشيئة الرحمن

هذا البيان يزيل لبسًا طالما ... هلكت عليه الناس كل زمان

ويحل ما قد عقدوا بأصولهم ... وبحوثهم فافهمه فهم بيان

من وافق الكوني وافق سخطه ... أو لم يوافق طاعة الرحمن

فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا ... ت الحمد مع أجر ومع رضوان

وموافق الديني لا يعدوه أجـ ... ـر بل له عند الصواب اثنان

فصل

والحكمة العليا على نوعين أيـ ... ـضًا حصّلا بقواطع البرهان

إحداهما في خلقه سبحانه ... نوعان أيضًا ليس يفترقان

إحكام هذا الخلق إذ إيجاده ... في غاية الإحكام والإتقان

وصدوره من أجل غايات له ... وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه ... أيضًا وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللائي حمدن وكونها ... في غاية الإحكام والإتقان

أي هو تعالى (الحكيم) الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان: **أحدهما**: الحكمة في خلقه، فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملًا على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللًا ولا نقصًا ولا فطورًا، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعًا بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر، وقد تحدى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرروا النظر والتأمل هل يجدون في خلقه خللًا أو نقصًا، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا، وأي فضل وكرم أعظم من هذا؟ فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجلُّ الفضائل لمن يَمُنُّ الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم

الدائم، فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء وخلقت الجنة والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا ويقينًا وإيمانًا وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه هو الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحًا حقيقيًّا إلا بالدين الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه؛ كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح، ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيرًا من هداه ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية؛ انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم. وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغًا هائلًا، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم. ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه وصدق ما جاء به، لكونه محكمًا كاملًا لا يحصل الصلاح إلا به.

وبالجملة فالحكيم متعلقاته المخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع أن القدر متعلق بما أوجده وكونه وقدره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه، والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضاد ذلك فقد وجد فيه الحكم

القدري، فإن ما فعله واقع بقضاء الله وقدره، ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه. فالخير والشر والطاعات والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع للحكم الشرعي ومتعلقه. والله أعلم.

وهو الحيي فليس يفضح عبده　　عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره　　فهو الستير وصاحب الغفران

هذا مأخوذ من قوله ﷺ: «**إن الله حيي يستحي من عبده إذا مد يديه إليه أن يردهما صفرًا**»[1]. وهذا من رحمته وكرمه وكماله وحلمه أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه حتى إنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات نازل، وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح، ويستحيي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفرًا، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة.

وهو الحيي الستير يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا والله يستره فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. وهذا كله من معنى اسمه (الحليم) الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلًا، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا، ولهذا قال:

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٠.

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

وهو العفو فعفوه وسع الورى لولاه غار الأرض بالسكان

يعني أنه تعالى (الحليم) الذي له الحلم الكامل، (العفو) الذي له العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العظيمين معصية العاصين وظلم المجرمين، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، وحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، وحلمه وسع السماوات والأرض، فلولا عفوه ما ترك على ظهرها من دابة، وهو تعالى عفو يحب العفو عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالون بها عفوه، من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه، ومن كمال عفوه أن المسرفين على أنفسهم إذا تابوا إليه غفر لهم كل جرم صغير وكبير، وأنه جعل الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها.

وهو الصبور على أذى أعدائه شتموه بل نسبوه للبهتان

قالوا له ولد وليس يعيدنا شتمًا وتكذيبًا من الإنسان

هذا وذاك بسمعه وبعلمه لو شاء عاجلهم بكل هوان

لكن يعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه بالشرك والكفران

وهذه الأبيات في تفسير اسمه (الصبور) مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الصحيح **«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم»**[1]. وبما ثبت أيضًا في الصحيح قال الله تعالى: **«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولدًا وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم**

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٢.

يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[1]. فالله تعالى يدر على عباده الأرزاق المطيع منهم والعاصي، والعصاة لا يزالون في محاربته وتكذيبه وتكذيب رسله والسعي في إطفاء دينه، والله تعالى حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون في الشرور وهو يتابع عليهم النعم، وصبره أكمل صبر؛ لأنه عن كمال قدرة وكمال غنى عن الخلق وكمال رحمة وإحسان، فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، الصبور الذي يحب الصابرين ويعينهم في كل أمورهم.

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

(الرقيب) و (الشهيد) مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

وهو الحفيظ عليهمُ وهو الكفيـ ـل بحفظهم من كل أمر عان

ذكر رحمه الله (للحفيظ) معنيين: **أحدهما**: أنه قد حفظ على عباده ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاته عليها بفضله وعدله.

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٣.

والمعنى الثاني: من معنيي (الحفيظ) أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال « وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عاني » أي مشق مكروه.

وحفظه لخلقه نوعان عام وخاص؛ **فالعام**: حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يُقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشي إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي هدى كل مخلوق إلى ما قدر له وقضى له من ضروراته وحاجاته؛ كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضار، وهذا يشترك فيه البر والفاجر بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]. وهذا عام في دفع جميع ما يضرهم في دينهم ودنياهم، فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: «**احفظ الله يحفظك**»[1]. أي: احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله.

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة ... واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويبدي لطفه ... والعبد في الغفلات عن ذا الشان

(١) الترمذي (٢٥١٦).

يعني أن (اللطيف) من أسمائه الحسنى وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف لعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فلهذا كان معنى اللطيف أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن والخبايا والخفايا ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور وما لطف ودق من كل شيء.

النوع الثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى، ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم وبالجهاد في سبيله، وكما ذكر الله عن يوسف ﷺ وكيف ترقت به الأحوال ولطف الله به وله بما قدره عليه من تلك الأحوال التي حصل له في عاقبتها حسن العقبى في الدنيا والآخرة.

وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف «فيريك عزته» أي بامتحانك بما تكره، «ويبدي لطفه» في العواقب الحميدة السارة، فكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية أو رياسة أو سبب من الأسباب المحبوبة، فيصرفه الله عنها ويصرفها عنه رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبد حزينًا من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له في الغيب وأريد إصلاحه فيه لحمد الله وشكره على ذلك، فإن الله بعباده رءوف رحيم لطيف بأوليائه، وفي الدعاء المأثور «**اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت**»[1].

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٩.

فصل

وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل يعطيهمُ بالرفق فوق أماني

هذا قد أخذه المؤلف من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله رفيق يحب أهل الرفق**»[1]. وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئًا فشيئًا بحسب حكمته ورفقه مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتي بها شيئًا بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب، فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعًا لسنن الله في الكون واتباعًا لنبيه ﷺ فإن هذا هديه وطريقه تتيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلى أمر الناس ونهيهم وإرشادهم فإنه مضطر إلى الرفق واللين، وكذلك من آذاه الخلق بالأقوال البشعة وصان لسانه عن مشاتمتهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة والطمأنينة والرزانة والحلم.

وهو القريب وقربه المختص بالـ ـداعي وعابده على الإيمان

من أسمائه (القريب)، وقربه نوعان: **قرب عام**: وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، **وقرب خاص**: بالداعين والعابدين والمحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين. قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

(١) تقدم تخريجه ص٤١٠.

ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهو المجيب يقول من يدعُو أجبـ ـه أنا المجيب لكل من ناداني

وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يـدعـوه فـي سـرٍّ وفـي إعـلان

من أسمائه (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين، وإجابته نوعان: إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عبادة أو دعاء مسألة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فدعاء المسألة أن يقول العبد: اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه لكل من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته.

وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبر والفاجر، ولا يدل بمجرده على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلى صدقه وتعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم فيجيبهم الله، فإنه يدل على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوته وآيات صدقه.

وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات؛ فإنه من أدلة كراماتهم على الله، وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الإجابة طول السفر والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة.

وهو الجواد فجوده عم الوجو　　د جميعه بالفضل والإحسان

وهو الجواد فلا يخيب سائلًا　　ولو انه من أمة الكفران

يعني أنه تعالى (الجواد) المطلق الذي عم بجوده الكائنات، وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من بر وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤله، وأناله ما طلب فإنه البر الرحيم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. ومن جوده الواسع ما أعده لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهو المغيث لكل مخلوقاته　　وكذا يجيب إغاثة اللهفان

(فالمغيث) يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها وتقع في الشدائد والكربات؛ يطعم جائعهم ويكسو عاريهم ويخلص مكروبهم وينزل الغيث عليهم في وقت الضرورة والحاجة، وكذلك يجيب إغاثة اللهفان أي دعاء من دعاه في حالة اللهف والشدة والاضطرار. فمن استغاثه أغاثه، وفي الكتاب والسنة من ذكر تفريجه للكربات وإزالته الشدائد وتيسيره للعسير شيء كثير جدًا معروف.

فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهمُ وجازاهم بحب ثان
هذا هو الإحسان حقًّا لا معا ... وضة ولا لتوقع الشكران
لكن يحب شكورهم وشكورهم ... لا لاحتياج منه للشكران
وهو الشكور فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عُذِّبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنان

هذه الأبيات في تفسير (الودود الشكور) فالودود هو المحب المحبوب بمعنى وادّ وبمعنى مودود، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم، بل لا شيء أحب إليهم منه، ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخرى، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلقاتها، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة كل محبة، ويتعين أن تكون بقية المحاب تبعًا لها.

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة؛ إذ منه السبب ومنه المسبب، ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلك

محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محبًّا لربه، ومحبة بعدها شكرًا من الله له على محبة صار بها من أصفيائه المخلصين.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة ربه التي هي أعظم المطالب الإكثار من ذكره والثناء عليه، وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن أسمائه تعالى (الشاكر الشكور) الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه بمضاعفة الحسنات؛ الواحدة بعشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعينه ما يتحمل المتحملون[1] لأجله ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئًا لأجله عوضه خيرًا منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم على ذلك، وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقًّا واجبًا عليه، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه جودًا منه وكرمًا، ولهذا قال المصنف:

مـا للعباد عليه حق واجـب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

(١) إشارة إلى ما جاء في بعض الآثار عن الله عز وجل: بعيني ما يتحمله المتحملون من أجلي... حسن الظن بالله (٩٠).

وهذا القيد الذي قيده المصنف أحسن من إطلاق من قال:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع

وكذلك تقييد المؤلف للسعي بقوله:

كلا ولا سعي لديه ضائع إن كان بالإخلاص والإحسان

أي جامعًا للإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، وبذلك يكون العمل صالحًا كما قال في موضع آخر:

وقيام دين الله بالإخلاص والـ إحسان إنهما له أصلان

فما أصاب العباد من النعم ودفع النقم فإنه من الله تعالى فضلًا منه وكرمًا، وإن نعمهم فبفضله وإحسانه، وإن عذبهم فبعدله وحكمته، وهو المحمود على جميع ذلك.

فصل

وهو الغفور فلو أتي بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران
وكذلك التواب من أوصافه ... والتوب في أوصافه نوعان
إذنٌ بتوبة عبده وقبولها ... بعد المتاب بمنة المنان

فهو تعالى (الغفور التواب) الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب، ففي الحديث: «**إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة والاستغفار والإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى عباد الله والعفو عنهم وقوة الطمع في فضل الله وحسن الظن بالله وغير ذلك مما جعله الله مقربًا لمغفرته.

وتوبته على عبده نوعان: **أحدهما**: أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي والندم على فعلها والعزم على ألا يعود إليها واستبدالها بعمل صالح، **والثاني**: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها؛ فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها.

(١) الترمذي (٣٥٤٠).

فصل

وهو الإله السيد الصمد الذي صمدت إليه الخلق بالإذعان
الكامل الأوصاف من كل الوجو ه كماله ما فيه من نقصان

هذا معنى اسمه (الصمد) المعنى الجامع الذي يدخل فيه كل ما فسر به هذا الاسم الكريم، فهو الصمد الذي تصمد إليه أي تقصده جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسراره، وهو الذي قد كمل في علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعظمته ورحمته وسائر أوصافه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات.

وكذلك القهار من أوصافه فالخلق مقهورون بالسلطان
لو لم يكن حيًا عزيزًا قادرًا ما كان من قهر ولا سلطان

(القهار) وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا خيرًا ولا شرًا. ثم ذكر المصنف أن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتم قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره.

وكذلك الجبار من أوصافه والجبر في أوصافه قسمان
جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ذا كسرة فالجبر منه داني
والثانِ جبر القهر بالعز الذي لا ينبغي لسواه من إنسان
وله مسمى ثالث وهو العلو فليس يدنو منه من إنسان

من قولهم جبارة للنخلة الـ ـعليا التي فاتت لكل بنان

يعني أن للجبار من أسمائه الحسنى ثلاثة معانٍ كلها داخلة باسمه (الجبار) فهو الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير ويغني الفقير وييسر على المعسر كل عسير ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر يعيضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها، ويجبر جبرًا خاصًّا قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب، وإذا دعا الداعي فقال: (اللهم اجبرني) فإنه يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع جميع المكاره عنه.

والمعنى الثاني: أنه القهار لكل شيء، الذي دان له كل شيء، وخضع له كل شيء.

والمعنى الثالث: أنه العلي على كل شيء.

فصار الجبار متضمنًا لمعنى الرءوف القهار العلي، وقد يراد به معنى رابع وهو المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه.

وهو الحسيب حماية وكفاية والحسب كافي العبد كل أوان

(فالحسيب) هو الكافي للعباد جميع ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار. والحسيب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه، والحسيب أيضًا هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي كافيك وكافي أتباعك. فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهرًا وباطنًا وقيامه بعبودية الله تعالى.

وهـو الرشيد فقوله وفعاله رشـد وربـك مـرشـد الحيران
وكـلاهـمـا حـق فـهـذا وصـفـه والفعل لـلإرشـاد ذاك الثاني

يعني أن (الرشيد) هو الذي قوله رشد وفعله كله رشد وهو مرشد الحيران الضال فيهديه إلى الصراط المستقيم بيانًا وتعليمًا وتوفيقًا، فالرشد الدال عليه اسم الرشيد وصفه تعالى، والإرشاد لعباده فعله، فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور كلها حق لاشتمالها على الحكمة والحسن والإتقان، وأقواله الشرعية الدينية هي أقواله التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله المشتملة على الصدق التام في الأخبار والعدل الكامل في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلًا ولا أحسن منه حديثًا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. في الأمر والنهي، وهي أعظم وأجل ما يرشد بها العباد، بل لا وصول إلى الرشاد بغيرها، فمن ابتغى الهدى من غيرها أضله الله، ومن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي وهو بيان الحقائق والأصول والفروع والمصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بها الرشد العملي فإنها تزكي النفوس وتطهر القلوب وتدعو إلى أصلح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على كل جميل، وترهب عن كل ذميم رذيل، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو ضال. ولم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى المطلق، فكم هدى بفضله ضالًا وأرشد حائرًا وخصوصًا من تعلق به وطلب منه الهدى من صميم قلبه وعلم أنه المنفرد بالهداية.

والعدل من أوصافه في فعله ... ومقاله والحكم بالميزان
فعلى الصراط المستقيم إلهنا ... قولًا وفعلًا ذاك في القرآن

يعني أن الله هو (الحكم العدل) في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط. وهذا معنى قوله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. فإن أقواله صدق وأفعاله دائرة بين العدل والفضل، فهي كلها أفعال رشيدة، وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه أحكام عادلة لا ظلم فيها بوجه من الوجوه، وكذلك أحكام الجزاء والثواب والعقاب.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو الـ ـتنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

هذا تفسير (القدوس السلام) فهو المقدس المعظم المنزه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله، فهذا ضابط ما ينزه عنه؛ ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثيل أو شبيه أو كفؤ أو سمي أو ند أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها. ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له، فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة؛ كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن السوء ظن غير ما يليق بجلاله، وإذا قال العبد مثنيًا على ربه: « سبحان الله » « أو « تقدس الله » أو « تعالى الله » ونحوها كان مثنيًا عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

والبر في أوصافه سبحانه هو كثرة الخيرات والإحسان
صدرت عن البر الذي هو وصفه فالبر حينئذ له نوعان
وصف وفعل فهو بر محسن مولي الجميل ودائم الإحسان
وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السماوات العلى والأرض عن تلك المواهب ليس ينفكان

من أسمائه تعالى (البر الوهاب) الذي شمل الكائنات بأسرها ببره وهباته وكرمه، فهو مولي الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب، وصفه البر وآثار هذا الوصف جميع النعم

الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبره طرفة عين.

وإحسانه عام وخاص: فالعام المذكور في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وهذا يشترك فيه البر والفاجر وأهل السماء وأهل الأرض والمكلفون وغيرهم. والخاص رحمته ونعمه على المتقين حيث قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] الآية. وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وفي دعاء سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. وهذه الرحمة الخاصة التي يطلبها الأنبياء وأتباعهم تقتضي التوفيق للإيمان والعلم والعمل وصلاح الأحوال كلها والسعادة الأبدية والفلاح والنجاح، وهي المقصود الأعظم لخواص الخلق.

وكذلك الفتاح من أسمائه ... والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلهنا ... والفتح بالأقدار فتح ثاني
والرب فتاح بذين كليهما ... عدلًا وإحسانًا من الرحمن

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وفتحه تعالى قسمان:

أحدهما: فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي.

والثاني: الفتاح بحكمه القدري.

ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله جميع ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم، وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء واتباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم. وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفى كل عامل ما عمله. وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير وشر ونفع وضر وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا

مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. فالرب تعالى هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

وكذلك الرزاق من أسمائه	والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله	نوعان أيضًا ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان والـ	ـرزق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا	رزاقه والفضل للمنان
والثان سوق القوت للأعضاء في	تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو	ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رازقه بهذا الاعتبا	ر وليس بالإطلاق دون بيان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ورزقه لعباده نوعان: عام وخاص.

فالعام إيصاله لجميع الخليقة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها، فسهل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها، وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضًا من وجه آخر في حق المكلفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقًا ونعمة بهذا الاعتبار ويقال: « رزقه الله » سواء ارتزق من حلال أو حرام وهو مطلق الرزق.

وأما الرزق المطلق فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد الرسول ﷺ: رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له متألهة

لله متعبدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها. ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى « اللهم ارزقني » أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيّ الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

فصل

هذا ومن أوصافه القيوم والـ ـقيوم في أوصافه أمران
إحداهما القيوم قام بنفسه والكون قام به هما الأمران
فالأول استغناؤه عن غيره والفقر من كل إليه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شأن كذا موصوفه أيضًا عظيم الشان
والحي يتلوه فأوصاف الكما ل هما لأفق سمائه قطبان
فالحي والقيوم لن تتخلف الـ أوصاف أصلًا عنهما ببيان

هذا تفسير (الحي القيوم) وجمعهما في غاية المناسبة كما جمعهما الله في عدة مواضع من كتابه كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وذلك أنهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزة والقدرة والإرادة والعظمة والكبرياء وغيرها من صفات الذات المقدسة، والقيوم هو كامل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقامت به الأرض والسماوات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه وهي التي افتقرت إليه من كل وجه، فالحي والقيوم من له صفة كل كمال وهو الفعال لما يريد.

هو قابض هو باسط هو خافض هو رافع بالعدل والميزان
وهو المعز لأهل طاعته وذا عز حقيقي بلا بطلان
وهو المذل لمن يشاء بذلة الدْ ـدَارين ذل شقا وذل هوان

هو مانع معطٍ فهذا فضله والمنع عين العدل للمنان
يعطي برحمته ويمنع من يشا ء بحكمة والله ذو سلطان

هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا ينبغي أن يثنى على الله بها إلا كل واحد منها مع الآخر؛ لأن الكمال المطلق من اجتماع الوصفين، فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، والباسط للأرزاق والرحمة والقلوب، وهو الرافع لأقوام قائمين بالعلم والإيمان، الخافض لأعدائه. وهو المعز لأهل طاعته، وهذا عز حقيقي، فإن المطيع لله عزيز وإن كان فقيرًا ليس له أعوان، المذل لأهل معصيته وأعدائه ذلًّا في الدنيا والآخرة، فالعاصي وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإن لم يشعر به لانغماسه في الشهوات، فإن العز كل العز بطاعة الله، والذل بمعصيته ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وهو تعالى المانع المعطي فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى. وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإن له الحكمة في خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه هو المنفرد بهذه الأمور وكلها جارية تحت أقداره، فإن الله جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسبابًا ولضد ذلك أسبابًا؛ من قام بها ترتبت عليها مسبباتها، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا يوجب للعبد القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربه في حصول ما يحب، ويجتهد في فعل الأسباب النافعة فإنها محل حكمة الله.

فصل

والنور من أسمائه أيضًا ومن ... أوصافه سبحان ذي البرهان

قال ابن مسعود كلامًا قد حكا ... ه الدارمي عنه بلا نكران

ما عنده ليل يكون ولا نها ... ر قلت تحت الفلك يوجد ذان

نور السماوات العلا من نوره ... والأرض كيف الشمس والقمران

من نور وجه الرب جل جلاله ... وكذا حكاه الحافظ الطبراني

فبه استنار العرش والكرسي مع ... سبع الطباق وسائر الأكوان

وكتابه نور كذلك شرعه ... نور كذا المبعوث بالفرقان

وكذلك الإيمان في قلب الفتى ... نور على نور مع القرآن

وحجابه نور فلو كشف الحجا ... ب لأحرق السبحات للأكوان

وإذا أتى للفصل يشرق نوره ... في الأرض يوم قيامة الأبدان

وكذاك دار الرب جنات العلا ... نور تلألأ ليس ذا بطلان

والنور ذو نوعين مخلوق ووصـ ... ـف ما هما والله متحدان

وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ ... ـسوس ومعقول هما شيئان

احذر تزلّ فتحت رجلك هوة ... كم قد هوى فيها على الأزمان

من عابد بالجهل زلت رجله ... فهوى إلى قعر الحضيض الداني

لاحت له أنوار آثار العبا ... دة ظنها الأنوار للرحمن

فأتى بكل مصيبة وبلية ... ما شئت من شطح ومن هذيان
وكذا الحلولي الذي هو خدنه ... من ههنا حقًّا هما أخوان
ويقابل الرجلين ذو التعطيل والـ ... ـحجب الكثيفة ما هما سيان
ذا في كثافة طبعه وظلامه ... وبظلمة التعطيل هذا الثاني
والنور محجوب فلا هذا ولا ... هذا له من ظلمة يريان

بسط المصنف الكلام على هذا الاسم الكريم لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة متعلقاته ووقوع الاشتباه الكثير في ذلك. وحاصل ذلك أن من أسمائه جل جلاله ومن أوصافه (النور) الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والهيبة والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان.

والنور نوعان: حسي: كهذه العوالم التي لم يحصل لها نور إلا من نوره، ونور معنوي: يحصل في القلوب والأرواح بما جاء به محمد ﷺ من كتاب الله وسنة نبيه. فعلم الكتاب والسنة والعمل بهما ينير القلوب والأسماع والأبصار ويكون نورًا للعبد في الدنيا والآخرة ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. لما ذكر أنه نور السماوات والأرض وسمى الله كتابه نورًا ورسوله نورًا ووحيه نورًا.

ثم إن المؤلف حذر من اغترار من اغتر من أهل التصوف الذين لم يفرقوا بين نور الصفات وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنهم لما تألهوا وتعبدوا من غير فرقان وعلم كامل ولاحت أنوار التعبد في قلوبهم؛ لأن العبادات لها أنوار في القلوب، فظنوا هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال.

وأما أهل العلم والإيمان والفرقان فإنهم يفرقون بين نور الذات والصفات وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها ولا يحل بمخلوق، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها. والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار الله قلبه، فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علمًا وعملًا، وانكشفت عنه الشبهات القادحة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة، وكان قلبه نورًا وكلامه نورًا وعمله نورًا والنور محيط به من جهاته، والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها والله الموفق وحده.

فصل

وهو المقدم والمؤخر ذانك الـ ـصفتان للأفعال تابعتان
وهما صفات الذات أيضًا إذ هما بالذات لا بالغير قائمتان
ولذاك قد غلط المقسم حين ظـ ـن صفاته نوعان مختلفان
إن لم يرد هذا ولكن قد أرا د قيامها بالفعل ذي الإمكان
والفعل والمفعول شيء واحد عند المقسم ما هما شيئان
فلذاك وصف الفعل ليس لديه إلْـ لَا نسبة عدمية ببيان
فجميع أسماء الفعال لديه ليـ ـست قط ثابتة ذوات معاني
موجودة لكن أمور كلها نسب ترى عدمية الوجدان
هذا هو التعطيل للأفعال كالـ ـتعطيل للأوصاف بالميزان
فالحق أن الوصف ليس بمورد الـ ـتقسيم هذا مقتضى البرهان
بل مورد التقسيم ما قد قام بالذْ ـذَاتِ التي للواحد الرحمن
فهما إذًا نوعان أوصاف وأفـ ـعال فهذي قسمة التبيان
فالوصف بالأفعال يستدعي قيا م الفعل بالموصوف بالبرهان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما إن بين ذينك قط من فرقان
ومن العجائب أنهم ردوا على من أثبت الأسماء دون معاني
قامت بمن هي وصفه هذا محا ل غير معقول لذي الأذهان

وأتوا إلى الأوصاف باسم الفعل قا ... لوا لم تقم بالواحد الديان
فانظر إليهم أبطلوا الأصل الذي ... ردوا به أقوالهم بوزان
إن كان هذا ممكنًا فكذاك قو ... ل خصومكم أيضًا فذو إمكان
والوصف بالتقديم والتأخير كَوْ ... ني وديني هما نوعان
وكلاهما أمر حقيقي ونسـ ... ـبي ولا يخفى على الأذهان
والله قدر ذاك أجمعه بإحـ ... ـكام وإتقانٍ من الرحمن

فصل

هذا ومن أسمائه ما ليس يفـ ... ـرد بل يقال إذا أتى بقران
وهي التي تدعى بمزدوجاتها ... إفرادها خطر على الإنسان
إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب ... العرش عن عيب وعن نقصان
كالمانع المعطي وكالضار الذي ... هو نافع وكماله الأمران
ونظير هذا القابض المقرون باسـ ... ـم الباسط اللفظان مقترنان
وكذا المعز مع المذل وخافض ... مع رافع لفظان مزدوجان
وحديث إفراد اسم منتقم فمو ... قوف كما قد قال ذو العرفان
ما جاء في القرآن غير مقيد ... بالمجرمين وجا بـ(ذو) نوعان

ذكر المصنف هذه الأبيات في تفسير اسمه (المقدم المؤخر) وهما كما تقدم من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده على الله إلا مقرونًا بالآخر فإن الكمال من اجتماعهما، فهو تعالى المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم يكون كونيًّا كتقديم بعض المخلوقات على بعض وتأخير بعضها على بعض، وكتقديم الأسباب على مسبباتها والشروط على مشروطاتها. وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقدير بحر لا ساحل له. ويكون شرعيًّا كما فضل الأنبياء على الخلق وفضل بعضهم على بعض، وفضل بعض عباده على بعض، وقدمهم في العلم والإيمان والعمل والأخلاق وسائر الأوصاف، وأخر من أخر منهم بشيء من ذلك، وكل هذا تبع لحكمته. وهذان الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمين بالله، والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال؛ لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها وأفعالها ومعانيها وأوصافها، وهي ناشئة عن إرادة الله وقدرته. فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباري، وأن صفات الذات متعلقة بالذات، وصفات أفعاله متصفة بها الذات ومتعلقة بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال.

وأما تقسيم بعض أهل الكلام الباطل أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله، بل الفعل عندهم عين المفعول، فهذا قول باطل بالكتاب والسنة والإجماع من السلف، وهو مخالف لما يعقله العقلاء في قلوبهم، فإن صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ومتصف بها من قالها أو عملها، ولا يتصور في العقل مفعول من غير فعل ولا مخلوق من غير خلق، كما لا يتصور أحد اسمًا مشتقًّا دالًّا على غير صفة في المحل المسمى به، والذي أوجب لهم هذا الغلط الفاحش زعموا أنهم إذا لم يقولوا بهذا اقتضى حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا كل صفة فعلية لله فأنكروا استواءه على عرشه ونزوله، وأفعاله التي يوجدها شيئًا فشيئًا، وأقواله التي يتكلم بها شيئًا بعد شيء. وهذا التعطيل لأفعاله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلًا؛ فكذلك التعطيل لصفاته الفعلية باطل.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم أثبتوا كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله، واعترفوا بها، لا فرق عندهم بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته

وكلها قائمة بالله، والله موصوف بها، وهو القول الذي دل عليه النقل والعقل. ومن أوصاف الأفعال الأسماء المزدوجة كالمقدم المؤخر والضار النافع والمعطي المانع ونحوها وتقدمت.

فصل

واعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب شرحًا جامعًا مختصرًا كما تقدم، وما لم يذكره فإنه ذكر نظيره من الأسماء الحسنى أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر (المتين) وهو داخل في (القوي القدير)، ولم يذكر (الأعلى) وهو في معنى (العلي) كما تقدم، ولم يذكر (الرحمن الرحيم الرءوف الكريم) وهي في معنى (البر الجواد الوهاب) ولم يذكر (الرب والله والملك والمالك) وقد ذكر في **البدائع** أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى فقال: الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم السميع العليم البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما (الملك) فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المُقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما (الإله) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فقد دخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن (الله) أصله (الإله) وأن اسم (الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى والله أعلم.

فصل

ودلالـة الأسـمـاء أنـواع ثلا ... ث كـلـهـا مـعـلـومـة بـبـيـان

دلـت مطابقة كـذاك تضمنًا ... وكـذا التزامًا واضـح البرهان

أمـا مطابقة الـدلالـة فهي أن ... الإسـم يفهم مـنـه مفهومان

ذات الإله وذلك الوصف الذي ... يشتق منه الإسـم بالميزان

لكن دلالـتـه على إحداهما ... بتضمن فافهمه فـهـم بيان

وكذا دلالته على الصفة التي ... مـا اشتق منها فالتزام دانـي

وإذا أردت لـذا مـثـالًا بينًا ... فمثال ذلـك لفظة الرحمن

ذات الإلـه ورحـمـة مدلولها ... فهما لـهـذا اللفظ مـدلـولان

إحداهما بعض لذا الموضوع فهـ ... ـي تضمن ذا واضـح التبيان

لكن وصف الحي لازم ذلك الـ ... ـمعنى لـزوم العلم للرحمن

فـلـذا دلالـتـه عـلـيـه بـالـتـزا ... م بـيّـن والـحـق ذو تـبـيـان

هذه قاعدة ذكرها المصنف نافعة في الأسماء الحسنى، وذلك أن الدلالة نوعان: لفظية ومعنوية عقلية، فإن أعطيت اللفظ جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص، وإن أعطيته بعض المعنى فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه، وأما الدلالة المعنوية العقلية فيه خاصة العقل والفكر الصحيح؛ لأن اللفظ بمجرده لا يدل عليها، وإنما ينظر العبد ويتأمل في المعاني اللازمة لذلك اللفظ الذي لا يتم معناها بدونه وما يشترط له من الشروط، وهذا

يجري في جميع الأسماء الحسنى، كل واحد منها يدل على الذات وتلك الصفة دلالة مطابقة، ويدل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ويدل على الصفة الأخرى اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام؛ مثال ذلك (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة، ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام؛ لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته للمرحوم وعلمه به وبحاجته، وكذلك ما تقدم من استلزام (الملك) جميع صفات الملك الكامل، واستلزام (الرب) لصفات الربوبية، و(الله) لصفات الألوهية وهي صفات الكمال كلها، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد. فهذه قاعدة نافعة.

ومن القواعد المتعلقة بأسمائه الحسنى ما ذكره المصنف بقوله:

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حمّلت لمعاني

إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالـ ... إشراك والتعطيل والنكران

فالملحدون إذًا ثلاث طوائف ... فعليهمُ غضب من الرحمن

يعني أن أسماءه الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالة على معانيها، وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء، ولذلك كانت حسنى فلو كانت أعلامًا محضة لم تكن حسنى، ولهذا إن كان الاسم منقسمًا إلى حمد ومدح وغيره لم يدخل بمطلقه بأسماء الله كالمريد والصانع والفاعل ونحوها فهذه ليست من الأسماء الحسنى، فصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف بأكمل الصفات، وله أيضًا من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه.

والواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفى من معانيها صفة، ولا تشبه بصفات المخلوقين، ولهذا توعد الله الملحدين في أسمائه. إما أن يسموا بها بعض

المخلوقات كتسمية آلهتهم (اللات) من (الإله) و(العزى) من (العزيز) و(مناة) من (المنان)، وإما أن تمثل بصفات المخلوقين، وإما أن تنفى وتعطل كما يفعل الجهمية ومن تبعهم من كل معطل لصفات الله أو بعضها.

وأعظم أنواع الملحدين فيها ملاحدة الاتحادية الذين سموا بأسمائه وصفاته كل موجود في الوجود، وهذا تعطيل لذاته وصفاته وأفعاله. ولنقتصر في الإشارة إلى الإلحاد بأسمائه وصفاته على ما ذكرنا، مع أن المؤلف بسط الكلام، لكننا أتينا بالجمل الكلية فيها.



فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

هذا وثاني نوعي التوحيد تو حيد العبادة منك للرحمن

ألا تكون لغيره عبدًا ولا تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والـ إحسان في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك التـ تَوحيد كالركنين للبنيان

وحقيقة الإخلاص توحيد المرا د فلا يزاحمه مراد ثاني

لكن مراد العبد يبقى واحدًا ما فيه تفريق لدى الإنسان

إن كان ربك واحدًا سبحانه فاخصصه بالتوحيد مع إحسان

أو كان ربك واحدًا أنشاك لم يشركه إذ أنشاك رب ثاني

فكذاك أيضًا وحده فاعبده لا تعبد سواه يا أخا العرفان

والصدق توحيد الإرادة وهو بذ ل الجهد لا كسلًا ولا متواني

والسنة المثلى لسالكها فتو حيد الطريق الأعظم السلطاني

فلواحدٍ كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

هذي ثلاث مسعدات للذي قد نالها والفضل للمنان

فإذا هي اجتمعت لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان

وهذا النوع زبدة رسالة الله لرسله، فكل نبي يبعثه الله يدعو قومه يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له، فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقق به، ويعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته، وما يقويه وينميه، وما ينقضه أو ينقصه، وشروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع.

فأما حده وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم العبد ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة، وأن صفات الإلهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقًّا أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ويقوم بحقائق الإحسان وروح الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، مخلصًا ذلك كله لله، لا يقصد به غرضًا من الأغراض غير رضا ربه وطلب ثوابه، متابعًا في ذلك رسول الله ﷺ، فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبيه ﷺ في هديه وسمته وكل أحواله؛ ولهذا كمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء (توحيد الإخلاص لله وحده) فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده، و(توحيد الصدق) وهو توحد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته، و(توحيد الطريق) وهو المتابعة.

فلهذا قال « فلواحد » وهو الله « كن واحدًا » في عزمك وصدقك وإرادتك « في واحد » أي متابعة الرسول؛ ولهذا فسره بقوله « أعني طريق الحق والإيمان ». فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص من كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الثلاثة، وإذا كان الله تعالى هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة لم يشاركه في ذلك مشارك، فعليك ألا تتأله ولا تتعبد لغيره، وعليك أن تخصه بالتوحيد والسؤال واللجأ والفزع في أمورك كلها.

وهذا من أعظم الأدلة على توحيد الإلهية، وهو الاستدلال بربوبية الله للعبد، بل وللخلق كلهم والتفرد بتدبيرهم وإسداء النعم عليهم، على أنه هو الإله حقًّا الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئًا من العبودية غيره.

ومن الأدلة على ذلك معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق، وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها فإنه من الله تعالى، ليس بها وليس منها. وهذا من أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية، وكذلك هو المنفرد بالنعم كلها، وهو وحده المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، وسواه فقير إلى ربه في كل حال، لا يستغني عنه طرفة عين، فمن أعظم الباطل وأكبر المنكرات أن يجعل شيئًا منه شريكًا لله في شيء من خصائصه، وشيء من حقوقه على عباده، فإن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، لا نبيًّا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

وهذا النوع من التوحيد متضمن للنوع الأول الذي هو توحيد الأسماء والصفات الداخل فيها توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذي له صفة الإلهية وهي صفات الكمال كلها. ولهذا كلما قوي إيمان العبد ومعرفته بأسماء الله وصفاته قوي توحيده وتم إيمانه، وأما ما يناقض هذا التوحيد فقد ذكره المصنف بقوله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ... ـا كان من حجر ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن

يعني أن الشرك المناقض لهذا التوحيد نوعان: جلي ظاهر مخرج من دائرة الإسلام، وهو الشرك الأكبر، وهذا النوع لا يقبل الغفران قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨، ١١٦]. وتفسيره أن يتخذ العبد لله ندًّا يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، أو يدعوه أو يصرف له نوعًا من العبادة الظاهرة والباطنة.

وفي هذا المقام لا فرق بين الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين والطالحين والأشجار والأحجار وغيرها؛ فمن صرف لشيء منها نوعًا من العبادة فهو مشرك كافر قد سواها بربه في هذا الحق الذي يختص به، فإن العبودية لا حق فيها لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، بل هم مفتقرون غاية الافتقار إلى تألههم وتعبدهم لله.

وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة يتوسل بها ويتطرق إلى الشرك الأكبر، بشرط ألا يبلغ مرتبة العبادة، كالحلف بغير الله وكالرياء والتصنع للمخلوقين ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك، فلا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك كله؛ جليّه وخفيه ظاهره وباطنه الأقوال منه والأفعال، وتكون أعماله كلها خالصة لله متبعًا فيها سنة رسول الله ﷺ.

والعبادة هي كل ما يحبه الله ويرضاه مما شرعه من الأعمال الظاهرة والباطنة، وقد حدها المؤلف بقوله:

ليس العبادة غير توحيد المحبـ ـبَة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحابّ كلها، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم هذا التعليق المبارك على يد جامعه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ثالث ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين. وتم نقله من خط المصنف في تسعة عشر من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين والحمد لله.

